عوالمُ الأصوات عندَ المتصوفة مقاربة لغوية

م.د. علاء صالح عبيد

كلية العلوم الإسلامية/ جامعة وارث الأنبياء

Alaa.alasady83@gmail.com

الملخص

تحاول هذه الدراسة التطرق إلى موضوع مهم من موضوعات علم الأصوات نجد أنه أخذ حيزًا لا بأس به عند علماء المتصوفة وهو (عوالمُ الأصوات عندَ المتصوفة مقاربة لغوية) إنّ ابن عربي في كتابه" الفتوحات المكية" يستعرض هذه العوالم لربطها بموضوع الصوت إذ ذكر سبعة عوالم وهذه العوالم هي عينها أعضاء آلة النطق التي ذكرها الخليل ومن جاء بعده من الأصواتيين، فعالم الجبروت مثلا يمثل الحنجرة وعالم الملكوت الأعلى يمثل الحلق وهكذا...

ثم تأتي العوالم الممتزجة وهي العالم الممتزج بين العالم الوسط والعالم الأعلى ويضم القاف والكاف والصاد والضاد والطاء والظاء وغيرها من العوالم التي سيذكرها البحث، ولأن علم الأصوات كبير جدا بمصطلحاته ومفاهيمه فقد اختصره البحث بهذه العوالم المرتبطة بأعضاء النطق فقط.

الكلمات المفتاحية: عوالمُ الأصوات، المتصوفة، مقاربة لغوية

"The Worlds of Sounds in Sufism: A Linguistic Approach"

Dr. Alaa Saleh Obeid

Faculty of Islamic Sciences / University of the Heirs of the Prophets

Alaa.alasady83@gmail.com

Abstract

The realms of sounds mentioned by Ibn Arabi are the same as the members of the articulation machine mentioned by Al-Khalil and the vocalists who came after him. The realm of tyranny represents the larynx، the realm of the highest kingdom represents the throat، the middle world represents the region that includes the sounds confined between the bottom of the throat and the inside of the lips، and the realm of the king and testimony represents the

The lips، then come the mixed worlds، which are the mixed world between the middle world and the higher world، and it includes the qaf، the kaf، the yad، the dhaad، the ta' and za'. In his book The MeccanConquests.

Keywords: Worlds of Sounds, Sufis, Linguistic Approach.

المقدمة

فالناظر في الدرس الصوتي يجده قد أُشبع بحثا وطرحت محاوره بين الدارسين بكثرة مما يجعل الكتابة في موضوع يتعلق بعلم الأصوات – وهو ينشد الجدة – فيه شيئا من الصعوبة، فحاولنا تسليط الضوء على الجانب الصوتي عند المتصوفة إذ وقفنا في هذا البحث على كتاب" الفتوحات المكية" لابن عربي – وهو من أبرز علماء المتصوفة – وكشف البحث عن عوالم الحروف التي ذكرها ابن عربي وحاولنا المقاربة بين ما جاء به ابن عربي وبين ما ذكره علماء الأصوات من القدماء والمحدثين؛ وبناءً على ذلك وسمنا بحثنا بـ" عوالم الأصوات عند المتصوفة مقاربة لغوية"، ولما كان هدف البحث تسليط الضوء على جزئية واحدة من جزئيات علم الأصوات عند ابن عربي اكتفى البحث بالحديث عن عوالم الحروف التي مثلت الصفات المخرجية فضلا عن بعض الصفات السمعية والنطقية كالجهر والهمس والشدة والرخاوة والإطباق.

واتخذنا من المنهج الوصفي التحليلي أداة للوصول إلى مبتغانا من هذا البحث.

وتجدر الإشارة إلى أن المادة البحثية فرضت تقسيم البحث على محاور تكلمنا في بادئ الأمر عن مفهوم الصفة في اللغة والاصطلاح، ثم عن مفهوم الصفة الصوتية، ثم تحدثنا عن عوالم الأصوات وأحوالها عند ابن عربي، وكل ذلك مسبوق بمقدمة وملحق بخاتمة تضمنت أبرز النتائج التي توصل إليها البحث.

هذا وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد وآله الطيبين الطاهرين.

مفهوم الصفة:

لغة:

يقول الخليل (ت ١٧٥هـ:) الوصف: وصفُكَ الشيء بحليته ونعته» (العين: مادة) وصف (١/ ٣٧٥)، فجعل الوصف مشتملا على الحلية والنعت، فالحلية عنده هي" تحليتك وجه الرجل إذا وصفته" (المصدر نفسه: مادة) حلى))، وأما النعت فهو" وصفك الشيء بما فيه « (المصدر نفسه: مادة) نعت (:١/ ٢٩٣).

ويوضح أبو هلال العسكري(ت ٣٩٥ هـ) الفرق بين النعت والحلية بقوله:" النعت هو ما يظهر من الصفات ويشتهر ولهذا قالوا هذا نعت الخليفة كمثل قولهم: الأمين، والمأمون، والرشيد" (الفروق اللغوية:٣٠)، وقوله:" التحلية في الأصل فعل المحلي، وهو تركيب الحلية على الشيء مثل السيف وغيره وليس من قبيل القول" (المصدر نفسه: ٣١)، فيظهر أن الأصل في التحلية هو الفعل المادي الملموس وليس من قبيل القول.

والصفة أخص من الوصف، يقول الراغب الاصفهاني (ت٤٢٥هـ) في حدوده: «وصف الشيء بحليته ونعته والصفة: الحالة التي عليها من حليته« (المفردات في غريب القرآن: ٨٧٣) فهو يفرق بين الوصف والصفة، وعرفها الجرجاني(ت ٨١٦ هـ) بقوله:" الاسم الدال على بعض أحوال الذات وذلك نحو طويل، وقصير، وأحمق وغيرها".

(التعريفات: ١٣٨) ويمكن القول إن الصفة لا تعدو أن تكون علامة يتوصل بها لمعرفة الشيء وتمييزه عن غيره.

وجاءت تعريفات الصفة في معجمات المحدثين متقاربة إلى حد ما مع ما جاء به القدماء، فمن ذلك ما ورد في المعجم الوجيز" الصفة: الحالة التي يكون عليها الشيء ويتميز بها" (المعجم الوجيز) باب الواو (٦٧١.)، كما نلمح دلالتها التمييزية في ضوء تعريف" الخصيصة" بـ" الصفة" فـ" الخصيصة: الصفة التي تميز الشيء وتحدده" (المصدر نفسه:) باب الخاء (١٩٩، وينظر: المعجم الوسيط باب الخاء :٢٣٨)، وربما جاء تعريف الصفة موافقا لما ورد عند القدماء فالصفة هي" الحالة التي يكون عليها الشيء من حليته ونعته كالسواد، والبياض، والعلم، والجهل« (المعجم الوسيط) باب الواو (: ١٠٣٧)

اصطلاحا:

تعددت تعريفات الوصف ومن ثمَّ الصفة، إذ عرفها العلماء كل من منظوره وعلى وفق متبنياته، فالوصف عند المتكلمين" عبارة عما دل على الذات باعتبار معنى هو المقصود من جوهر حروفه، ويدل على الذات بصيغته كأحمر، فإنه بجوهر حروفه يدل على معنى مقصود وهو الحمرة، فالوصف والصفة مصدران كالوعد والعدة". (التوقيف على مهمات التعاريف ٣٣٨) والمتكلمون فرقوا بينهما فقالوا:" الوصف يقوم بالواصف، والصفة تقوم بالموصوف... الوصف ذكر الشيء بحليته، والصفة الحالة التي عليها الشيء من وصفه ونعته، والوصف قد يكون حقا وباطلا" (حاشية رد المحتار:١/ ٤٧٦).

وعرفها الاصوليون بتعريفات متعددة لعلها تعطي المفهوم نفسه، منها قولهم: مفهوم الصفة، وهو تعليق الحكم باحدى صفتي الذات، فهو عند القائل بمفهوم الصفة يدل على انتفاء الحكم عند انتفاء تلك الصفة" (الغيث الهامع شرح جمع الجوامع ١٢٤.)، وقولهم" هي إثبات الحكم في صورة لوصف مخصوص يدل على نفي ذلك الحكم عن غير تلك الصورة" (شرح المنهاج للبيضاوي في علم الاصول: ٢٨٥)، وقولهم:" هي دلالة تعليق الحكم بصفة من صفات الذات على نفي الحكم عن الذات عند انتفاء تلك الصفة (نهاية السول شرح منهاج الوصول : ١ / ٣٦٤).

وتظهر تعريفات الأصوليين أن الصفة عندهم عارضة في الموصوف غير ثابتة فيه، فقد حددوها بتعلقها بالذات لإثبات حكم أو نفيه، فتنتفي بانتفاء ذلك الحكم.

أما اللغويون ومنهم الخليل بن أحمد الفرهيدي فقد قسم الصفة على قسمين: نعت، وحلية، وكلاهما تحت مسمى الوصف، وهو تقسيم لما هو ثابت من الصفات" نعت"، وما هو عرضي منها" حلية"، وقد تقدم الحديث عنهما في التعريف اللغوي للوصف في كتاب العين.

الصفات الصوتية:

إذا كانت أهمية معرفة مخارج الأصوات تتجلى في تحديد النقطة المعينة لإنتاج الصوت فإنَّ أهمية معرفة صفات الأصوات تتجلى في تمييز تلك الأصوات بعضها عن بعض، ولاسيما الأصوات المشتركة في المخرج (ينظر: التطور النحوي للغة العربية: ١٣)، فصفة الصوت كيفية عارضة له عند

حدوثه في المخرج، وتتميز بذلك الأصوات المتحدة بعضها مع بعض (ينظر: المنح الفكرية في شرح المقدمة الجزرية: ١٥، نهاية القول المفيد في علم تجويد القرآن المجيد: ٤٣)، يقول الداني: " أعلموا أنَّ قطب التجويد وملاك التحقيق معرفة مخارج الحروف وصفاتها التي بها ينفصل بعضها من بعض وإن اشترك في المخرج" (التحديد في الإتقان والتجويد:١٠)، فمعرفة المخارج وحدها لا تكفي لتمييز الأصوات فلا بُدَّ من معرفة الصفات أيضا، يقول مكي بن أبي طالب (ت ٤٣٧ هـ ": (واعلم أنه لولا اختلاف الصفات في الحروف لم يفرق في السمع بين أحرف من مخرج واحد، ولولا اختلاف المخارج لم يفرق في السمع بين حرفين أو حروف على صفة واحدة" (الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة بعلم مراتب الحروف ومخارجها وصفاتها وألقابها وتفسير معانيها وتعليلها وبيان الحركات التي تلزمها: ١٩١- ١٩٢)

وحدد سيبويه الفائدة من معرفة صفات الأصوات بقوله:" وإنَّما وصفت لك حروف المعجم بهذه الصفات لتعرف ما يحسن فيه الإدغام وما يجوز فيه، وما لا يحسن فيه ذلك ولا يجوز فيه وما تبدله استثقالا كما تدغم، وما تخفيه وهو بزنة المتحرك" (الكتاب: ٤/ ٤٣٦)، كما يقول أحد علماء التجويد في فائدة معرفة الصفات ": اعلم – وفَّقك الله – أنَّ هذه الصفات المذكورة لها فائدتان الأولى: تمييز الحروف المشاركة، ولولاها لاتحدت أصواتها ولم تتميز ذواتها... فهذه إحدى فائدتي الصفات، وهي تمييز الحروف المشتركة في المخرج والفرق بين ذواتها. ولها فائدة أخرى وهي تحسين لفظ الحروف المختلفة المخارج (المفيد في شرح عمدة المجيد في النظم والتجويد: ٥٢)

واتبع القدماء مسارات لتمييز الأصوات بعضها من بعض، وكان التقابل واحدا من أهم تلك المسارات (ينظر: الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة بعلم مراتب الحروف ومخارجها وصفاتها وألقابها وتفسير معانيها وتعليلها وبيان الحركات التي تلزمها: ١٨٥ الموضح في التجويد: ١٦٢ مسارات الدرس الصوتي عند رضي الدين الأستراباذي مقاربة)، ومن ذلك ما قاله الخليل في حديثه عن الهمزة ":مهتوتة مضغوطة؛ فإذا رفّه عنها لانت فصارت الياء والواو والألف (كتاب العين:١/ ٥٢)، فهو يقابل بين الهمزة، والياء والواو والألف وكذلك قوله ":فلولا بحة في الحاء لأشبهت العين... ولولا هتة في الهاء... لأشبهت الحاء" (المصدر نفسه:١/ ٥٧)؛ لتقارب مخارجها، ويقول سيبويه: لولا الإطباق لصارت الطاء دالا والصاد سينا والظاء ذالا، ولخرجت الضاد من الكلام، لأنَّه ليس شيء من الحروف من موضعها غيرها" (الكتاب: ٤/ ٤٣٦)، ويقول مكي بن أبي طالب:" ولولا الهمس الذي في السين لكانت زايا، وكذلك لولا الجهر الذي في الزاي لكانت سينا، إذ قد اشتركا في المخرج والصفير والرخاوة والانفتاح والتسفل، وإنَّما اختلفا في الجهر والهمس لا غير، فباختلاف هاتين الصفتين افترقا في السمع فاعرف ذلك. فيجب أن تعلم أيضا أنَّ السين حرف مؤاخ للصاد، لاشتراكهما في المخرج والصفير والهمس والرخاوة، ولولا الإطباق والاستعلاء اللذين في الصاد – ليسا في السين – لكانت الصاد سينا، وكذلك لولا التسفل والانفتاح الذين في السين – ليسا في الصاد– لكانت السين صادا. فاعرف من أين

اختلف السمع في هذه الحروف والمخرج واحد والصفات متفقة" (الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة بعلم مراتب الحروف ومخارجها وصفاتها وألقابها وتفسير معانيها وتعليلها وبيان الحركات التي تلزمها: ١٨٥).

حال الأصوات عند ابن عربي:

يقول ابن عربي في الغرض من تأليفه لكتابه (الفتوحات المكية): والغرض في هذا الكتاب إظهار لمع ولوائح إشارات من أسرار الوجود ولو فتحنا الكلام على سرائر هذه الحروف وما تقتضيه حقائقها لكلت اليمين وحفي القلم وجف المداد وضاقت القراطيس والألواح ولو كان الرق المنشور فإنها من الكلمات التي قال الله تعالى فيها"لو كان البحر مداداً" وقال"ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله" وهنا سر وإشارة عجيبة لمن تفطن لها وعثر على هذه الكلمات فلو كانت هذه العلوم نتيجة عن فكر ونظر لانحصر الإنسان في أقرب مدة ولكنها موارد الحق تعالى تتوالى على قلب العبد وأرواحه البررة تنزل عليهم من عالم غيبه برحمته التي من عنده وعلمه الذي من لدنه والحق تعالى وهاب على الدوام فياض على الاستمرار والمحل قابل على الدوام فإما يقبل الجهل وإما يقبل العلم فإن استعد وصفى مرآة قلبه وجلاها حصل له الوهب على الدوام" (الفتوحات المكية:٢٥) فالناظر إلى النص في أعلاه يجده مشتملا على محاور متعددة لعل أهمها:

١. الغرض من تأليف الفتوحات هو اظهار اسرار الوجود، ومن اسرار الوجود ما يتعلق بالحروف.

٢..يستعمل ابن عربي مصطلح الحروف.

٣.تحمل الحروف من الأسرار ما لا يمكن حده وذكره، وما يكل القلم عن تقييده.

٤. الإلمام بأسرار الحروف من خصائص الله سبحانه وتعالى ويقصر علم الانسان عن إدراكها، إلا من نقى قلبه من العباد فإن الله جل اسمه يهب له هذه الاسرار.

عوالم الأصوات:

يقول ابن عربي في مراتب الحروف: " اعلم وفقنا الله وإياكم أن الحروف أمة من الأمم مخاطبون ومكلفون وفيهم رسل من جنسهم ولهم أسماء من حيث هم ولا يعرف هذا إلا أهل الكشف من طريقنا وعالم الحروف أفصح العالم لساناً وأوضحه بياناً وهم على أقسام كأقسام العالم المعروف في العرف فمنهم عالم الجبروت عند أبي طالب المكي ونسميه نحن عالم العظمة وهو الهاء والهمزة ومنهم العالم الأعلى وهو عالم الملكوت وهو الحاء والخاء والعين والغين ومنهم العالم الوسط وهو عالم الجبروت عندنا وعند أكثر أصحابنا وهو التاء والثاء والجيم والدال والذال والراء والزاي والظاء والكاف واللام والنون والصاد والضاد والقاف والسين والشين والياء الصحيحة ومنهم العالم الأسفل وهو عالم الملك والشهادة وهو الباء والميم والواو الصحيحة ومنهم العالم الممتزج بين عالم الشهادة والعالم الوسط وهو الفاء ومنهم عالم الامتزاج بين عالم الجبروت الوسط وبين عالم الملكوت وهو الكاف والقاف وهو امتزاج المرتبة ويمازجهم في الصفة الروحانية

الطاء والظاء والصاد والضاد ومنهم عالم الامتزاج بين عالم الجبروت الأعظم وبين الملكوت وهو الحاء المهملة ومنهم العالم الذي يشبه العالم منا الذين لا يتصفون بالدخول فينا ولا بالخروج عنا وهو الألف والياء والواو المعتلتان فهؤلاء عوالم ولكل عالم رسول من جنسهم ولهم شريعة تعبدوا بها ولهم لطائف وكثائف وعليهم من الخطاب الأمر ليس عندهم نهي...“ (المصدر نفسه:٢٧).

الناظر في النص أعلاه يجده مشتملا على فكر ابن عربي فيما يخص الحروف، ولعل ذلك يتجلى في محاور عديدة نذكر منها:

١.ابن عربي يخلع على الحروف صفات المخلوقات الحية فهي عنده أمة من الامم فيهم مكلفون ومخاطبون وفيهم رسل من جنسهم، وهو بذلك يختلف عما ذهب إليه اللغويون من القدماء والمحدثين فهم اقتصروا على وصف الحروف صوتيا وجعل الصفة مقتصرة على التمييز بين الأصوات (ينظر: المدخل إلى علم أصوات العربية: ٩٦).

٢. يجعل المعرفة بعوالم الحروف مقتصرة على أصحاب الطريقة من المتصوفة.

٣.يرى أن عالم الحروف افصح العوالم لسانا وأوضحها بيانا.

٤. يقسم العوالم التي تنتمي إليها الحروف على سبعة عوالم، ومن ينظر في هذه العوالم السبعة ويحاول الموازنة بينها وبين تقسيم القدماء للأصوات على وفق مخارجها – والمخرج“ هو النقطة المعينة من آلة النطق التي ينشأ منها الحرف، أو يظهر فيها، ويتميز نتيجة لتضييق مجرى الهواء، أو غلقه ثم إطلاقه“ (الدراسات الصوتية عند علماء التجويد: ١٠٨) يجدها تقترب كثيرا من تقسيمهم، ولإثبات ذلك سنقف على تلك العوالم ونقارب بينها وبين ما تقابله في تقسيم الأصواتيين للصفات المخرجية للأصوات.

أ- عالم الجبروت(العظمة):

ما يسميه ابن عربي عالم الجبروت أو عالم العظمة يقابل الحنجرة في آلة النطق فكلا الصوتين اللذين ينتميان إلى هذا العالم – أعني الهمزة والهاء – مخرجهما الحنجرة (ينظر: مناهج البحث في اللغة: ٨٥، المدخل إلى علم أصوات العربية: ٨٧).

ب- العالم الاعلى(الملكوت):

يقابل هذا العالم عند ابن عربي الحلق في آلة النطق فكل من الاحرف التي تنتمي لهذا العالم (الحاء والخاء والعين والغين) كلها أصوات حلقية وهو عينه تقسيم الخليل وسيبويه لأصوات الحلق (ينظر: العين: ١ / ٥٨، الكتاب: ٤ / ٤٣٣).

ج- عالم الوسط:

أما عالمه الثالث الذي يسميه عالم الوسط فيقابل المنطقة الوسطى من آلة النطق والتي تنحسر بين أدنى الحلق وباطن الشفة وما تضم هذه المنطقة من أعضاء آلة النطق التي تشترك في انتاج أصوات هذا العالم –التاء والثاء والجيم والدال والذال والراء والزاي والظاء والكاف واللام والنون والصاد والضاد والقاف والسين والشين

والياء الصحيحة – وهذه الأعضاء هي اللسان والأسنان والحنك الأعلى بكل جزئياته (ينظر: العين:١/ ٥٨، الكتاب، ٤ / ٣٣، المدخل إلى علم أصوات العربية: ٨٦ – ٨٧)، ففضلا على اتفاق أصوات هذا العالم مع الأصوات التي تنتجها هذه المنطقة من آلة النطق فقد اتفقت تسمية العالم" الوسط" مع الواقع الملموس لتوسط هذه المنطقة بين أدنى الحلق وباطن الشفتين.

د- العالم الأسفل (الملك والشهادة):

تمثل عالمه الرابع وهو العالم الأسفل أو ما يسميه بعالم الملك والشهادة بالأصوات الشفوية" الباء، والميم، والواو" ويمكن مقاربته من جانبين: أولهما مصطلح" الأسفل" الذي يقترب من معنى المنطقة الأخيرة من مناطق أعضاء آلة النطق عند القدماء وهي الشفة العليا والسفلى (ينظر: العين: ١ / ٥٨، الكتاب: ٤ / ٤٣٣)، وثانيهما مصطلح" الشهادة" الذي يوحي بالمشاهدة العينية لحال الشفتين الذي تتخذه عند النطق بهذه الأصوات الثلاثة فهي تنغلق انغلاقا تاما ثم تنفتح بشدة عند النطق بالباء، على حين تنضم كلا الشفتين إلى داخل الفم عند النطق بالميم، وتتخذ شكلا مدورا عند النطق بالواو (ينظر: المنظومة الكلامية دراسة في فيزياء وبيولوجيا اللغات الشفهية: ٧٣، دراسات صوتية: ٩٩)، ولعل هذه المشاهدة العينية لحركة الشفة مع هذه الأصوات الثلاثة دعت ابن عربي لاستعمال مصطلح" الشهادة" مع العالم الذي يضم هذه الحروف.

هـ - العالم الممتزج بين عالم الشهادة وعالم الوسط:

ولعل ما يعضد كلامنا أكثر هو الامتزاج بين العوالم فعالمه الخامس هو عالم ممتزج بين عالم الشهادة، وعالم الوسط وتمثل بحرف" الفاء" وهو صوت شفوي اسناني كما يسميه الاصواتيون (ينظر: المدخل إلى علم أصوات العربية: ٨٦)، إذ تشترك في انتاجه الشفتان التي تمثل عالم الشهادة والأسنان التي تمثل جزءا من عالم الوسط – كما وضحنا سابقا –

و- العالم الممتزج بين العالم الوسط والعالم الأعلى:

جعل ابن عربي الامتزاج في عالمه السادس بين عالم الوسط والعالم الأعلى، وحروفه هي: الكاف والقاف ويسميها امتزاج بالرتبة وآراه يعني بالرتبة" المخرج" فمخرج القاف والكاف (ينظر: العين: ١ / ٥٨، الكتاب: ٤ / ٤٣٣) من بداية منطقة الوسط – التي حددنا بدايتها بعد الحلق ونهايتها قبل الشفة – وتقترب جدا من العالم الأعلى الذي يمثل الحلق فيراها ممتزجة بين العالمين؛ ليميزه عن الحروف التي امتزجت بهذا العالم بالصفة الروحانية وهي: الطاء والظاء والصاد والضاد واستعماله لمصطلح" الصفة" مع هذه الأصوات دليل واضح على وعيه على اشتراك هذه الأصوات بأكثر من صفة صوتية فكلها أصوات مستعلية مفخمة مطبقة (ينظر: التعليل الصوتي عند العرب: ١٤٧ – ١٦٠).

ي- العالم الممتزج بين عالم الجبروت الاعظم وعالم الملكوت:

وجعل عالمه السابع يدور في فلك الحاء المهملة فهي عنده تمثل العالم الممتزج بين عالم الجبروت الأعظم والذي مثلنا له بالحنجرة فيما سبق وعالم الملكوت وهو الذي يمثل الحلق كما

ذكرنا وأفرد للحاء هذا العالم لقربها إلى عالم الجبروت الأعلى فهي تقترب في مخرجها جدا من الحنجرة وهي أول الحروف التي ذكرها في عالم الملكوت وبذلك تكون أقرب من غيرها من حروف عالم الملكوت إلى عالم الجبروت، ولعل ما حداه إلى ذلك قول الخليل:" ولولا هتة في الهاء... لأشبهت الحاء لقرب مخرج الهاء من الحاء" (العين:١/ ٥٧)، وتجدر الاشارة إلى أن من الأصواتيين المحدثين من جمع بين أصوات الحنجرة" عالم الجبروت الأعظم" وأصوات الحلق" عالم الملكوت" في مخرج واحد واطلقوا عليها تسمية الأصوات الحلقية (ينظر : الأصوات اللغوية: ٧٦، دراسات في فقه اللغة: ٢٧٨، فقه اللغة وخصائص العربية: ٤٦).

وبعد أن ينتهي من الحديث عن عوالمه السبعة ينتقل إلى الألف والواو والياء وحاله في نسبتها إلى أحد تلك العوالم لا يختلف عمن سبقه من العلماء الذين تحدثوا في مخارج هذه الأصوات وصفاتها، فكما قال ابن عربي:" ومنهم العالم الذي يشبه العالم منا الذين لا يتصفون بالدخول فينا ولا بالخروج عنا وهو الألف والياء والواو المعتلتان فهؤلاء عوالم ولكل عالم رسول من جنسهم ولهم شريعة تعبدوا بها ولهم لطائف وكثائف وعليهم من الخطاب الأمر ليس عندهم نهي" (الفتوحات المكية: ٢٧)، فقد قال الخليل فيها:" والياء والواو والألف... هوائية...، لأنها لا يتعلق بها شيء" (العين: ١/ ٥٨)، وقال ابن سينا:" أمر هذه الثلاثة عليّ مشكل" (أسباب حدوث الحروف: ٤٣)، وتحديد الصفة المخرجية لهذه الحروف فيه من الصعوبة ما لا يخفى على المتخصصين ؛ ولذا لم ينسبها ابن عربي إلى عالم معين وبالتالي فهو اكتفى بخلع صفة العوالم عليهما من دون أن يحدد ذلك العالم وهذا يعضد ما ذهبنا إليه من أن العوالم التي ذكرها ابن عربي هي عينها الصفات المخرجية التي ذكرها الأصواتيون.

ولم يقتصر ابن عربي على توظيف الصفات المخرجية للحروف في تقسيم العوالم التي تنتمي إليها تلك الحروف، بل شمل تقسيمه هذا الصفات الصوتية مثل الجهر والهمس والشدة والرخاوة والاطباق، إذ جعل الجهر مقابلا للعالم الظاهر والهمس مقابلا للعالم الباطن من عوالم الوجود، كما وظف إمكانيات مصطلحي الجهر والهمس الدلالية في استنطاق الآيات القرآنية، فبنى علاقة بيَّن فيها الصلة بين الهمس وعالم اللطف، وكذلك الصلة بين الجهر والمصادمة والشدّة وذلك بقوله:" فاعلم أنَّ العالم على بعض تقاسيمه على قسمين بالنظر إلى حقيقة ما معلومة عندنا، قسم يسمى عالم الغيب وهو كل ما غاب عن الحس ولم تجر العادة بأن يدرك الحس له، وهو من الحروف السين والصاد والكاف والخاء المعجمة والتاء باثنتين من فوق والفاء والشين والهاء والثاء بالثلاث والحاء، وهذه حروف الرحمة والألطاف والرأفة والحنان والسكينة والوقار والنزول والتواضع وفيهم نزلت هذه الآية:" وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما" ونزلت فيهم أيضاً الرقيقة المحمدية التي تمتد إليهم منه كونه أوتي جوامع الكلم، أتى إليهم بها رسولهم فقال تعالى:" والذين هم في صلاتهم خاشعون" كما ونزلت فيهم" وخشعت الأصوات للرحمن" وهذا القليل من الحروف هو أيضاً من الذي نقول فيه أنه من اللطف لما ذكرناه فهذا من جملة المعاني التي تطلق عليه منه عالم الغيب واللطف" (الفتوحات المكية: ١ / ٧٩ – ٨٠).

نلحظ من النص في أعلاه أن أصوات الهمس التي يسميها ابن عربي حروفًا هي عينها التي ذكرها سيبويه في كتابه (ينظر: الكتاب:٤/ ٤٣٤)، كما يكشف النص عن توظيف دلالي يربط بين هذه الأصوات المهموسة وبين دلالات الانشراح للنفس وعمق الإيمان، وتعلق المخلوق بصفات خالقه ليرتقي بذلك المخلوق إلى مرحلة الصفاء البشري كما عند الحقيقة المحمدية التي كانت مظهراً حقيقياً لذلك فتجلى فيها الرحمة والألطاف والرأفة والحسنات والسكينة والوقار والتواضع... وقد حاول ابن عربي ربط هذه الدلالات الإيمانية لهذه الصفات الصوتية بمواقف قرآنية تكشف دلالات باطنية وغيبية لا مادية ملموسة، وهو بذلك يحاول عقد مقارنة بين عالم الغيب الباطن وبين عالم الوجود الظاهر الذي مثله القسم الثاني من أقسام الوجود التي ذكرها ابن عربي بقوله:" والقسم الآخر يسمى عالم الشهادة والقهر: وهو كل عالم من عالمي الحروف جرت العادة عندهم أن يدركوه بحواسهم وهو ما بقي من الحروف، وفيهم قوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ فهذا عالم الملك والقهر والشدة والجهاد والمصادمة والمقارعة، ومن روحانية هذه الحروف يكون لصاحب الوحي الغت والغط وصلصلة الجرس ورشح الجبين، ولهم: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾، و ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾، كما أنه في حروف عالم الغيب نزل به الروح الأمين على قلبك، لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ، وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا (الفتوحات المكية: ١/ ٨٠).

وفي مقام آخر سجل ابن عربي مقارنة أخرى بين الجهر والهمس من جهة وبين أصوات الطبيعة من جهة أخرى، إذ قال:" وظهر على هذا النفس أصوات الرعود فالحروف المجهورة، وهبوب النسيم وهي الحروف المهموسة" فابن عربي يربط هنا بين علو أصوات الرعود واهتزاز الأجسام من هذا الصوت وأصوات الجهر ووضوح السمع فيها من جهة، وكذلك ربط بين الهمس وهبوب النسيم وما به من صوت هادئ وما يصاحبه من سكون الموجودات الحية، وبعدها عن الصخب والخوف، وكل هذا التوظيف الدلالي استحضره ابن عربي من القرآن الكريم عبر الآيات التي ركز عليها، وهو بذلك لم يترك الأمر على بعده الظاهري مع الحروف المجهورة من دون ربطها بالبعد الروحي لها، والذي يمثل العالم الروحي المنزل على رسول الانسانيةﷺ في أثناء تلقي الوحي وما يصاحبه من الغت والغط وصلصلة الجرس ورشح الجبين، وهذه الأمور كانت تصيب النبيَّﷺ عند نزول الوحي(عليه السلام)، فحاول ابن عربي الربط بين كل ذلك في نصوصه التي وظف فيها هذه الدلالات كما سبق في بيانه لدلالة الأصوات المجهورة، ونلحظ أنَّ لغته مشفرة ولا يمكن وضع اليد عليها إلا بفك هذا التشفير (ينظر: فلسفة التأويل: ٣١٣ – ٣١٥).

وتحدث ابن عربي عن الشدة والرخاوة والإطباق وهي كلها صفات صوتية مرتبطة بعوالم الأصوات عنده، إذ ربط بين أصوات الطبيعة والصفات الصوتية:" الشدة،والرخاوة، والإطباق"، ولعله أراد بذلك ربط حركة الأفلاك بحركة اللسان في أثناء حصول الإطباق

مع بعض الحروف، وكذلك أراد الربط بين لفظ الإطباق وطباق السماوات السبع، إذ قال:" جرت الريح ما بين زعزع ورخاء وهي الحروف الشديدة والرخوة... وظهرت الطباق في الأفلاك كالحروف المطبقة في نفس الإنسان إذا قصده، وهو في الإلهيات إذ أردناه أن نقول كن، فالحروف المطبقة في النفس الإلهي وجود سبع سموات طباقاً، وكل موجود في العالم على جهة الإطباق" (الفتوحات المكية ٢/ ٣٩١)، ونلحظ أن ابن عربي يجعل الحرف هو الأصل للتشبيه الذي يحمل عليه المشبه، وهذا الجعل متأسس على أن الحروف هي الأصل للوجود رجوعاً لحرف الألف الذي يمثل الـذات الالهية وقد أعطى دلالة للحروف الشديدة، وهي زعزعة الريح، والحروف الرخوة أعطاها دلالة الرخاء ناظراً إلى طبيعة الصفة ليجعلها عنصراً مائزاً وموجها دلاليا، يربط به بين الظواهر الطبيعية ومرجعياتها في الحروف، وكل هذا لا يخرج عن وحدة الوجود عنده، أما حركة الإطباق فلكونها حركة متعلقة باللسان فهي حركة طبيعية ربطها بحركة كونية وهي حركة الأفلاك، وحاول أيضا ربط حركة الإطباق بشكلها الترتيبي في الفم بفكرة طباق السماوات، فكأنه يرى تنظيما تراتبياً متشابها بين طبقات حركة اللسان في الفم من مستقرة إلى أعلى الحنك، وبين طبقات السماوات السبع، ولم يكتف بربط العلاقات الكونية فيما بينها من دون إرجاعها إلى موجدها الأول بقوله:" وهو في الإلهيات إذا أردناه أن نقول له كن" (المصدر نفسه: ٢/ ٣٩١).

الخاتمة

توصل البحث إلى نتائج متعددة لعل أهمها:

١. نظر المتصوفة إلى أسرار الوجود وحاولوا الوقوف على تلك الأسرار بلغة صعبة يصعب على أغلب القارئين فهمها وتفسيرها، وجعلوا الحروف سرًا من أسرار الوجود.

٢. قسم ابن عربي الصفات المخرجية على عوالم وجاء تقسيمه لهذه العوالم مقاربا لتقسيم الأصواتيين لمخارج الأصوات.

٣. جعل ابن عربي الألف والواو والياء في عوالم مستقلة عن عوالمه السبعة التي قابلت التقسيم المخرجي لآلة النطق.

٤. جاء تقسيم ابن عربي لأصوات الجهر والهمس موافقا لتقسيم سيبويه لهما.

٥. جعل ابن عربي الجهر مقابلا للعالم الظاهر من عوالم الوجود على حين جعل الهمس مقابلا للعالم الباطن، وربط دلالة كل من الجهر والهمس بدلالات بعض الآيات القرآنية.

٦. ربط ابن عربي الصفات الصوتية بالصفات الطبيعة ووظف المصطلحات الصوتية في تفسير الآيات القرآنية.

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١. أسباب حدوث الحروف، للشيخ الرئيس أبي علي الحسين بن عبد الله بن سينا ت (٤٢٨ هـ) تحقيق: د.محمد حسَّان الطيَّان، يحيى مير علم، مطبوعات مجمع اللغة العربية – دمشق ١٤٠٣ هـ – ١٩٨٢ م.

٢. الأصوات اللغوية، د.إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، ٢٠٠٧ م.

٣. البحث في اللغة، د. تمام حسان، د. ط، مكتبة الأنجلو، (د. ت).

٤. التحديد في الإتقان والتجويد، أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني الأندلسي ت (٤٤٤هـ)، تحقيق: د.غانم قدوري الحمد، مكتبة دار الأنبار، مطبعة الخلود، ط ١، ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٨م.

٥. التطور النحوي للغة العربية، برجشتراسر، أخرجه وصححه وعلق عليه: د.رمضان عبد التواب ط ٢، مكتبة الخانجي – القاهرة، ١٤١٤هـ – ١٩٩٤م

٦. التعريفات، الشريف الجرجاني، تحقيق: محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة، القاهرة.

٧. التعليل الصوتي عند العرب في ضوء علم الصوت الحديث – قراءة في كتاب سيبويه – د.عادل نذير بيري الحسَّاني، ديوان الوقف السني ـ بغداد، ط ١، ١٤٣٠ هـ ـ ٢٠٠٩ م.

٨. التوقيف على مهمات التعاريف، عبد الرؤوف المناوي، تحقيق: عبد الحميد صالح حمدان، ط ١، عالم الكتب، ١٩٩٠.

٩. الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، د.غانم قدوري الحمد، مطبعة الخلود، بغداد، ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م

١٠. دراسات صوتية، د. تغريد السيد عنبر، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، جامعة الدول العربية، القاهرة – مصر، ١٤٠١هـ – ١٩٨٠م.

١١. دراسات في فقه اللغة، د.صبحي الصالح، دار العلم للملايين، بيروت – لبنان، ط ١ ١٣٧٩هـ – ١٩٦٠م .

١٢. الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة بعلم مراتب الحروف ومخارجها وصفاتها وألقابها وتفسير معانيها وتعليلها وبيان الحركات التي تلزمها، أبو محمّد مكي بن أبي طالب القيسي ت (٤٣٧ هـ)، تحقيق: أحمد حسن فرحات، دار عمار، عمان – الأردن، ط ٣، ١٩٩٦ م.

١٣. رد المحتار على الدر المختار شرح تنوير الأبصار، ابن عابدين، تحقيق: عادل احمد عبد الموجود، علي محمد معوض، دار عالم الكتب الرياض.

١٤. العين، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري ت (١٧٠هـ)، د.مهدي المخزومي، د. إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال

١٥. شرح المنهاج للبيضاوي في علم الاصول، شمس الدين الاصفهاني، تحقيق: عبد الكريم بن علي بن محمد النملة، ط١، دار الرشيد – الرياض، ١٩٩٩.

١٦. الغيث الهامع شرح جمع الجوامع، ولي الدين أحمد عبد الرحيم، محمد تامر حجازي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ٢٠٠٤.

١٧. الفتوحات المكية لابن عربي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.

١٨. الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، تحقيق: محمد ابراهيم سليم، دار العلم والثقافة، القاهرة – مصر.
١٩. فقه اللغة وخصائص العربية، دراسة تحليلية مقارنة للكلمة العربية وعرض لمنهج العربية الأصيل في التجديد والتوليد، د.محمد المبارك، دار الفكر، ط ٢، ١٩٦٤ م.
٢٠. فلسفة التأويل دراسة في تأويل القرآن عند ابن عربي د نصر حامد ابو زيد دار الوحدة ط١ ١٩٨٣
٢١. الكتاب، كتاب سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر ت (١٨٠هـ)، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي – القاهرة، ط ٤، ١٤٢٥ هـ – ٢٠٠٤ م.
٢٢. المدخل إلى علم أصوات العربية، د.غانم قدوري الحمد، منشورات المجمع العلمي العراقي، ١٤٢٣ هـ – ٢٠٠٢ م.
٢٣. المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات، حامد عبد القادر، محمد النجار، دار الدعوة.
٢٤. المفردات في غريب القرآن، الراغب الاصفهاني، تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت – لبنان.
٢٥. المفيد في شرح عمدة المجيد في النظم والتجويد، الحسن بن قاسم المرادي (ت ٧٤٩هـ)، تحقيق: جمال السيد رفاعي، صححه وقدم له: الشيخ محمود حافظ برانق، د. حامد بن خير الله، د. ط، مكتبة أولاد الشيخ (د.ت)
٢٦. المنح الفكرية في شرح المقدمة الجزرية، ملا علي القارئ، تحقيق: أسامة عطايا، مراجعة أ.د.أحمد شكري، دار الغوثاني للدراسات القرآنية – دمشق.
٢٧. المنظومة الكلامية دراسة في فيزياء وبيولوجيا اللغات الشفهية، د. بيتر ب. دنيس و د. اليوت بنشن، ترجمة: د.محيي الدين حميدي، الهيئة القومية للبحث العلمي معهد الإنماء العربي – ليبيا، ١٩٩١ م.
٢٨. مسارات الدرس الصوتي عند رضي الدين الأستراباذي مقاربة لسانية، د.حسن عبد الغني الأسدي، دار المدينة الفاضلة، العراق – بغداد، ط ١، ٢٠١٤ م
٢٩. نهاية السول شرح منهاج الوصول، جمال الدين الأسنوي، عالم الكتب.
٣٠. نهاية القول المفيد في علم تجويد القرآن المجيد محمد مكي نصر الجريسي (ت ١٣٢٢هـ)ط١، ضبط وتصحيح وتخريج: عبد الله محمود محمد، دار الكتب العلمية – بيروت، ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣ م.